

6

صحيح البخاري (١٣)

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا،
ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَكَمَا تَمُوتُنَّ إِنَّا وَانْتُمْ
مُسْلِمُونَ (١٠٢)} [آل عمران].

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ
مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)} [النساء].

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠)
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ
فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)} [الأحزاب] أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد - صلى الله
عليه وسلم - وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة
ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نواصل بمشيئة الله سبحانه شرح كتاب العلم من (صحيح البخاري).

بَابُ: الْإِنصَاتِ لِلْعُلَمَاءِ

١٢١ - حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ مُدْرِكٍ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ جَرِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» فَقَالَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» أخرجه البخاري (١٢١).

- استنصت الناس: اطلب منهم أن يسكتوا ويستمعوا لما أقوله لهم،
- كفارا: تفعلون مثل الكفار.

فمن هو جرير؟

هو: جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نصر بن ثعلبة بن حشم بن عوف، الأمير النبيل الجميل أبو عمرو - وقيل: أبو عبد الله - البجلي القسري، وقسر: من قحطان من أعيان الصحابة (سير أعلام النبلاء).

عَنْ الْمُغِيرَةَ بْنِ شَيْبَةَ قَالَ: وَقَالَ جَرِيرٌ: لَمَّا دَنَوْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ أَنْخَتُ رَاحِلَتِي، ثُمَّ حَلَلْتُ عَيْبَتِي، ثُمَّ لَبِسْتُ حُلَّتِي، ثُمَّ دَخَلْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ، فَرَمَانِي النَّاسُ بِالْحَدَقِ، فَقُلْتُ لِجَلِيسِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ، ذَكَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: نَعَمْ، ذَكَرَكَ أَنْفًا بِأَحْسَنِ ذِكْرٍ، فَبَيْنَا هُوَ يَخْطُبُ إِذْ عَرَضَ لَهُ فِي خُطْبَتِهِ وَقَالَ: " يَدْخُلُ

عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْبَابِ، أَوْ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنِ، إِلَّا أَنْ عَلَى
وَجْهِهِ مَسْحَةٌ مَلَكٍ " قَالَ جَرِيرٌ: " فَحَمِدْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا أَبْلَانِي " (٤)،
وَقَالَ أَبُو قَطَنِ: فَقُلْتُ لَهُ: سَمِعْتَهُ مِنْهُ أَوْ سَمِعْتَهُ مِنَ الْمُغِيرَةِ بْنِ شَيْبَلٍ
قَالَ: " نَعَمْ " . (مسند أحمد (١٩١٨٠)، السنن الكبرى للنسائي (٨٢٤٦)، المستدرک علی
الصحيحين للحاکم (١٠٥٣)).

- مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنِ: أفضل أهل اليمن، - مسحة ملك: أي أثر من
الجمال.

- ولكن هل يجوز أن نصف البشر بالملائكة؟

نعم يجوز وصف البشر بالملائكة لقوله تعالى: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ
أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ
اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا
بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)} [يوسف]
إذن هذا جائز وليس فيه ما يخالف العقيدة.

- فحمد الله عز وجل على هذا الثناء: لأن الثناء عندما يأتي من الأعلى
للأدنى يكون له وقع في القلب وعلى النفس أعظم مما لو جاء من الأدنى
(إذا كان هناك شخص صاحب منزلة أو مكانة بين الناس في العلم أو
غيره وقام بالثناء على آخر ومدحه فإن هذا الثناء يكون وقعه على نفس
الممدوح أعظم من حيث السعادة والانشراح والطمأنينة مما لو كان
المادح له شخص عادي).

عَنْ قَيْسٍ، عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسَلَّمْتُ، وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ. زَادَ ابْنُ نُمَيْرٍ، فِي حَدِيثِهِ عَنْ ابْنِ إِدْرِيسَ: وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْهِ أَنِّي لَا أَتُبْتُ عَلَى الْخَيْلِ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا». أخرجه مسلم (٢٤٧٥) واللفظ له، أخرجه البخاري (٣٠٣٦، ٣٠٣٥).

حديث الباب: قيل الحديث في حجة الوداع وهي: أول وآخر حجة حجها رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وخطب فيها خطبة الوداع التي تضمنت قيمًا دينية وأخلاقية عدة، وسميت حجة الوداع بهذا الاسم لأن النبي ﷺ ودع الناس فيها، وعلمهم في خطبته أمر دينهم، وأوصاهم فيها بتبليغ الشرع إلى من غاب عنها (ووداعه للناس كان واضحًا من طريقة الخطبة) فكان حريصًا جدًا على تعليم الناس الشريعة وأمور دينهم وحثهم على عمل الخير، كما أمرهم أن يُبلغ الشاهد منهم الغائب، وحرِيَّ بالإنسان إذا ما شعر بدنو أجله أو أن شمس حياته شارفت على الغروب أن يحرص على القيام بكل الأعمال النافعة التي تكون له خير يمتد به الأجر حتى بعد وفاته، وهذا من ذكاء المرء وتوفيق الله له، فكل إنسان كَبُرَ في السنِّ وأوشك على النهاية ولقاء الله فعليه أن يبحث عن الأشياء التي يمكن أن تُقربه من الله عز وجل وتبقى بها الثمرة إلى ما بعد الموت.

قال إبراهيم عليه السلام: **{وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفُرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)}** [الشعراء]

- **وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ:** أي اجعل ألسنة الناس بعد موتي تتطلق بالثناء الحسن عليّ وتذكر الأعمال الصالحة التي كنت أقوم بها، وإذا وُجِدَ الإخلاص في قلب العبد فإن الله عز وجل يجعل له أعواناً في حياته يُعينونه على أمر دعوته ودينه وبعد الموت يُقيد له أعواناً أيضاً ليلبغوا عنه وهذا من حسن إسلام المرء وصدقه وطاعته لربه وتجرده لأنه ما أراد من سعيه في الطاعة إلا حب الله سبحانه وحب رسوله ﷺ والدرجات العُلا في الجنة.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدّاً، وإذا ما نظرنا إلى سير السلف فإننا سنجد فيها خير دليل على ذلك، فنحن نستقي من علم كل علماء السلف إلى الآن.

ويكفينا كمثال على ذلك (ابن القيم) فما من داعي أو داعية أو عالم أو حتى مسلم له دراية بالعلم إلا ولجأ لكتب ابن القيم فما هو مقدار إخلاص وتجرد هذا العالم؟

ولقد جاء في الخطبة: «أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ».

لقد أمر النبي ﷺ أصحابه الحاضرين للمشهد أن يُبلغوا غيرهم حتى ينتشر العلم والدين وتلك أيضاً نيةً أخرى وهي متعلقة بالداعي فينبغي أن يسعى من أجل نشر العلم والدين وإصلاح المسلمين ويكون ذلك همه وهدفه الذي يجتهد ويبذل الكثير لتحقيقه، فلا يكون لنفسه حظ في سعيه هذا، فالمهم أن ينتفع المسلمون بالعلم النافع.

***مثال:** داعي يجلس لإلقاء درس علم، فإذا كان علمه هذا نافع صافي ليس فيه أي خلل أو شائبة من شوائب البدع أو المنكرات ويراه داعيًا آخر على هذا الحال فإنه سيحدث أحد أمرين:

١- فإما أن يكون هذا الآخر مخلصًا لله وعنده تجرد فإنه سيدعو للأول في جوف الليل وفي سجوده أن يزيده الله علمًا وفهمًا ويُسدده ويؤيده ويكثر من أمثاله، هذا إذا كان مخلصًا.

٢- أما إذا كان لديه حظ نفس فإنه سيصعب عليه أن يرى مشهد كهذا ويغضب ويضيق صدره بنجاح هذا الداعي وربما يطعن فيه ويقلل من قدره ويحاول إسقاطه وهذا لأنه غير مخلص وعمله ليس لله، صاحب حظ النفس هذا لم يكن يدعو ابتغاء مرضات الله ولكن طلبًا للمكانة والمنزلة العالية بين الناس.

فانتبه: لأن الإنسان لا بد أن يُفتش في أعماق نفسه ويحاول أن يبحث في أحوالها ليعرف ما هي النية في السعي حتى لو كان هذا السعي في ظاهره الخير.

- قال النبي ﷺ: «استنصت النَّاسَ» أي أنه أمر جرير أن يجعل الناس يصمتون، وقد أمرهم بالإنصات حتى يفهمون ما يُقال، فكلما أُحيط السامع بالهدوء والصمت كلما كان ذلك أبلغ وأقرب له إلى الفهم وتجميع شتات الذهن، والعكس فكلما ازدادت الضوضاء والصخب حول الشخص كلما

قل فهمه واستيعابه وحدث له نوع من التشتت، إذن الفهم يتأتى مع السكوت والهدوء.

قال الحافظ: وَقَدْ وَقَعَ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْإِنْصَاتِ وَالِاسْتِمَاعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}**.

لقد فرق الله جل جلاله بين الاستماع والإنصات.

فما هو الفرق بين الاستماع والإنصات ؟

١- الْإِنْصَاتُ: هُوَ السُّكُوتُ وَهُوَ يَحْصُلُ مِمَّنْ يَسْتَمِعُ وَمِمَّنْ لَا يَسْتَمِعُ كَأَنْ يَكُونَ مُفَكِّرًا فِي أَمْرٍ آخَرَ.

***مثال:** درس علم يجلس فيه عدد من طلاب العلم الكل يُنصت ولكن البعض يسمع والبعض الآخر لا يسمع فقد يكون مُنشغل الذهن بشيء آخر فهو يُنصت ولا يسمع.

٢- أَمَّا الْاسْتِمَاعُ: قَدْ يَكُونُ مَعَ السُّكُوتِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ النُّطْقِ بِكَلَامٍ آخَرَ لَا يَشْتَغِلُ النَّاطِقُ بِهِ عَنْ فَهْمِ مَا يَقُولُ الَّذِي يَسْتَمِعُ مِنْهُ.

***مثال:** طالب العلم الذي يستمع للشيخ أو المعلم قد يكون في حالة من السكوت وقد يكون غير صامت ولكنه في حالة من التركيز مع ما يقوله الشيخ.

ولذلك فقد قال سفيان الثوري وغيره: أَوَّلُ الْعِلْمِ الْاسْتِمَاعُ ثُمَّ الْإِنْصَاتُ ثُمَّ الْحِفْظُ ثُمَّ الْعَمَلُ ثُمَّ النَّشْرُ.

- ١- الاستماع: أي تحصيل المعنى
- ٢- الإنصات: يقصد به المعنى الأول للإنصات أي الإنصات مع الاستماع والذي يصحبه التركيز وليس شرود الذهن.
- ٣- الحفظ: وحفظ العلم هام جدًا.
- ٤- ثم العمل: ويشمل مجاهدة النفس والهوى والشيطان والدنيا وكل شيء يحول بين الشخص وبين العمل.

لأن سبب الخذلان الذي يُعاني منه الكثير من المسلمين هو ترك العمل، فكلما حاول الإنسان أن يعمل بما علم كلما أدى ذلك إلى توكيد العلم وثباته والعكس صحيح فالمُلاحظ أننا نرى الكثير ممن يحضرون الدروس ويسمعونها وبكثرة تكون النتيجة لا شيء فهم لا يُحصلون العلم لأنهم لا يعملون بما يتعلمون، إذن الحل هو في العمل وليس في كثرة حضور حلقات العلم، ومع الأسف الناس يعرفون ذلك ولكنهم لا يرغبون في تصديقه ولذلك فإنهم يبحثون عن سبب يُدخلهم الجنة فما هو؟ هو أن يظلوا على حالهم من القيام ببعض الأعمال القليلة والتردد على حلقات العلم بكثرة، هؤلاء لا يفهمون أنهم لن تتبدل أحوال قلوبهم ولن يصلوا إلى الجنة إلا إذا عملوا بما علموا عن الله ورسوله، ودائمًا ما نجد عند النظر في كتاب الله سبحانه أنه يقول: **{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) }** [البقرة].

لم يذكر الله عز وجل الإيمان فقط ولكن قرنه بالعمل الصالح، فإذا لم يوجد العمل الصالح فلن يكون هناك أي تقدم لا في أعمال القلوب ولا في الأحوال مع الله ولا في أي شيء.

٥- ثم النشر: وقدم العمل على النشر فلماذا؟

لأن المتكلم بلسان الدين لينشره أيًا كان هذا الشخص (داعي_ شيخ_ أو حتى الإنسان العادي) إن لم يكن يعمل بهذا العلم الذي يقوم بنشره فلن يأتي بأي أثر ولن تكون له ثمرة، فيظل يتكلم ويتكلم والنتيجة صفر، والسبب في ذلك يرجع إلى افتقار المتكلم إلى العمل، فنص على العمل قبل النشر حتى إذا ما تكلم أنت الثمرة المرجوة من وراء كلامه.

وانظروا إلى أحوال السلف وكيف كانت مع العمل، فقد كان العمل بالنسبة لهم على درجة عالية جدًا وبالتالي فقد كان الواحد منهم إذا تكلم بالكلمة فإنه يجد لها تأثير على الآلاف بل والملايين وتظل بركة الكلمة مئات السنين، وكتبهم خير دليل على ذلك فقد مر عليها مئات السنين ومع ذلك فإنها مازالت يُنتفع بها إلى الآن لأن أعمالهم كانت قوية جدًا سواء أعمال القلوب أو أعمال الجوارح.

أما الكثير منّا الآن فإن آخر جهده هو القيام بأعمال الجوارح أما أعمال القلوب فإنها مُهملة في حين أنها أهم من أي عمل آخر لأن القلب إذا عمل فإن عمل الجارحة ينضبط، والعكس صحيح فإذا توقف القلب عن العمل فإن الجارحة يكون من الصعب عليها أن تعمل وإذا تغلبت على هذه الصعوبة فإنها تكون مُنعدمة الثمرة.

فعمل القلب من (اليقين_ الإخبات_ المحبة_ التوكل_ التبتل لله_ الخشية_ الخوف_ المحاسبة_ الرجاء_ الرهبة_ الرغبة_ الصبر_ الرضا_ الود_ غيرها الكثير) إذا كان مُنضبط راسخ فإنه يؤثر على عمل الجارحة فينضبط هو الآخر ويخرج على أكمل وجه وعلى هدى رسول الله ﷺ، أما إذا كان

القلب لا يعمل والجارحة فقط هي التي تعمل فإن التقدم يكون ببطء شديد جداً وقد يسقط في أي لحظة.

أعمال القلوب تحتاج إلى جهاد رهيب مع النفس لأن القلب إذا حقق هذه الأعمال على الوجه الصحيح فإنه سيجد اختلافاً كبيراً.
أولاً: عندما يقوم بأعمال الجارحة،
ثانياً: أن الله عز وجل سيحمي عبده من الوقوع في الشبهات إذا كان قلبه قائم بأعماله وإن لم يكن لديه علم.

وأكثر المسلمين الآن يسقطون إما في الشهوات وإما في الشبهات، ففي الشهوات بانغماسهم في الم لذات (أهل الدنيا)، أما أهل الدين من طلاب العلم وغيرهم فقد سلطت عليهم الشبهات.

والعبد إذا عمل على إصلاح قلبه فطرده منه الأمراض واجتهد على أن يملأه بأعمال القلوب وسؤال النفس عن كل عمل هل قام به على الوجه الذي ينبغي أم لا؟ فإذا كان مُحَبًّا فليسأل نفسه هل هو فعلاً مُحِبٌّ لله وإذا كان مُحَبًّا فالى أي مدى وصلت هذه المحبة؟ ويسأل نفسه أيضاً عن محبته للنبي ص وهل هذه المحبة على الوجه الصحيح أم أنها مجرد مشاعر وأحاسيس، وأحياناً ما تُوهم هذه الأحاسيس الإنسان بأن حبه صادق، لكن المحبة الصادقة لها علامات وأمور.

قال رسول الله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

قال الإمام النووي فيها أقوال:

١- أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ فِي حَقِّ الْمُسْتَحِلِّ بغيرِ حَقِّ.

وهذا يعني: أن شخص يقتل آخر وهو مستحل لهذا الأمر، فما المقصود بكلمة مستحل؟ أي أنه قد أقيمت عليه الحجة من قبل العلماء (هم وحدهم من يقوم ببيان الحرمة والحكم) فبينوا له حرمة القتل وبالرغم من ذلك قام بالقتل، هنا يُحكم على هذا الشخص بالكفر فلماذا حكم عليه بهذا الحكم؟ لأنه علم حرمة هذا الأمر ولكنه أصر على القيام به.

٢- وَالثَّانِي الْمُرَادُ كُفْرُ النِّعْمَةِ وَحَقِّ الْإِسْلَامِ.

وهذا يعني: كثرة النعم وبالرغم من ذلك لا يؤدي شكرها ولا يُعرف حق الله في هذه النعمة، ومن هذه النعمة الإسلام، وحق الإسلام على المسلمين عظيم جدًا لأنه نعمة، فنعمة كبيرة أن يولد الشخص فيجد نفسه بين أبوين مسلمين، فإن لم يشكر العبد هذه النعمة وهي أعظم النعم على الإطلاق فإنه يكون ممن كفروا النعمة.

٣- وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ يُقَرَّبُ مِنَ الْكُفْرِ وَيُؤَدِّي إِلَيْهِ.

أي أن: قتل المسلمين بعضهم البعض وضربهم رقاب بعضهم يمكن أن يؤدي إلى الكفر لماذا؟ لأنه قد يكون هناك معركة بين المسلمين ويكون عند البعض منهم العلم بحرمة قتل المسلم للمسلم ولكن يحدث الاستحلال لهذا القتل، ولا يُحكم بهذا الحكم على من يقتل لمجرد الضعف النفسي فقد

يقتل شخصاً آخر ليحافظ على منصبه أو لخلافٍ بينهما ولا يكون مستحلّاً (قال عن شيءٍ حرمه الله أنه حلال فهذا كافر خارج من الملة) لهذا القتل فهو مُقر بحرمة ولكنه يَأثم ويكون مرتكب كبيرة وهي مسألة من أعظم ما يكون عند الله عز وجل.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا».

- فسحة من دينه: منشرح الصدر مطمئن النفس في سعة من رحمة الله عز وجل.

- ما لم يصب دماً حراماً: طالما أنه لم يقتل نفساً بغير حق.

فقتل النفس عند الله مسألة عظيمة جداً، فهو كبيرة ومرتكبها في المشيئة فإما أن يدخله الله النار ويعذبه ثم يُخرجه بعدما يقضي عقوبة عن كل روح أزهقها ظلماً، فكم المدة؟ ومن يتحمل عذاب الله؟ وإما أن يكون مستحلّاً لذلك فهو كافر.

٤- وَالرَّابِعُ أَنَّهُ فَعَلَ كَفْعَ الْكُفَّارِ.

أي: تفعلون كما يفعل الكفار، لأن الكفار هم الذين كانوا يقتل بعضهم بعضاً من أجل الدنيا والملك.

٥- وَالْخَامِسُ الْمُرَادُ حَقِيقَةُ الْكُفْرِ وَمَعْنَاهُ لَا تَكْفُرُوا بَلْ دُومُوا مُسْلِمِينَ
أي : لا تعودوا بعد موتي إلى الكفر فترتدوا ولكن دوموا على ما أنتم
عليه من الإسلام بشرائعه وضوابطه.

٦- وَالسَّادِسُ حَكَاهُ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَفَّارِ الْمُتَكَفِّرُونَ
بِالسَّلَاحِ يُقَالُ تَكَفَّرَ الرَّجُلُ بِسِلَاحِهِ إِذَا لَبَسَهُ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ فِي كِتَابِهِ
تَهْذِيبُ اللُّغَةِ يُقَالُ لِلْبَاسِ السَّلَاحِ كَافِرٌ.
وذاك أيضاً من معاني الكفر.

٧- وَالسَّابِعُ قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ مَعْنَاهُ لَا يُكْفَرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَتَسْتَحِلُّوا قِتَالَ
بَعْضِكُمْ بَعْضًا.

وَأَظْهَرَ الْأَقْوَالِ الرَّابِعُ وَهُوَ اخْتِيَارُ الْقَاضِي عِيَاضِ رَحِمَهُ اللَّهُ.
وقد رجح الحافظ هذا القول أيضاً: معنى تفعلوا فعل الكفار فتنشبهوا بهم
في حال قتل بعضهم البعض لأن أصل القتل يكون للكفار وليس للمسلمين
وإن كان من الجائز أن تقاتل فئة مسلمة فئة أخرى من المسلمين وهذا
وارد بنص القرآن.

قال ابن العثيمين: وفي هذا دليل على أن قتل المؤمنين لبعضهم كفر، وقد
أيد هذا الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: (سباب المسلم فسوق وقتاله
كفر) لكنه كفر لا يخرج من الملة، والدليل على أنه لا يخرج من الملة
قوله تعالى: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا } إلى
قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ }.

_ هذا الكلام يعيه أولي الألباب والعقول والسائرین علی الكتاب والسنة
فليس لهم هوى ولكنهم يريدون أن يفهموا عن الله ورسوله، أما إذا قيل
لأصحاب الهوى فإنهم لا يسمعون ولا يقبلونه ولو قيل مرات ومرات.

قول ابن العثيمين يعني: أنه ليس هناك شك في أن كلمة الكفر واقعة ولكن
أي كفر يقصده الحديث (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)؟
لقد قال: كفر لا يخرج من الملة، فلماذا لا يخرج من الملة؟

لأنه استدل بقوله تعالى في مُحكم التنزيل: **{ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي
حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)}** [الحجرات].

وليس هذا الاستدلال خاص بالعلامة ابن العثيمين فقط بل أن الكثير من
السلف بداية من (مالك_ الشافعي_ أحمد_ ابن الجوزي _ ابن عبد
البر_ ومن المفسرين الطبري_ القرطبي) كل عالم يُعد من أهل السنة
والجماعة قال بهذا ولذلك فهناك إجماع بين علماء أهل السنة والجماعة
على أن هناك كفر دون كفر استناداً لهذه الآية التي تنص على أن قتل
المسلم ليس كفراً على إطلاقه ولكنه مشروط بالاستحلال.

هذه مسألة عقديّة هامة جداً وهي سبب وقوع من تلبس بفكر الخوارج
وبدأ يسير على منهج تكفير المسلمين، فهؤلاء لم يفهموا هذه النصوص
بل أنهم أخذوها وطاروا بها ليكفروا هذا وذاك من غير أن يفهموها فهماً
صحيحاً.

هو بالفعل كفر ولكنه كفر دون كفر كما قال ابن عباس.

فَعَنْ ابْنِ طَاوُسٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :
{وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤] ، قَالَ :
« هِيَ كُفْرٌ » ، قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ : « وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ »
تفسير عبد الرزاق (٧١٣).

قوله (كفر دون كفر) يوضح أن الكفر أنواع.

قال ابن بطال: أن الإنصات للعلماء والتوقير لهم لازم للمتعلمين، لأن العلماء ورثة الأنبياء، وقد أمر الله عباده المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ فقال الله تعالى: **لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ {الحجرات: ٢}** ويجب الإنصات عند قراءة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما يجب له صلى الله عليه وسلم، وكذلك يجب الإنصات للعلماء لأنهم الذين يحيون سنته ويقومون بشريعته. (عمدة القاري شرح صحيح البخاري).

وفي كلام ابن بطال: تنبيه على وجوب إنصات المتعلم للعالم عندما يتحدث أو يعرض مسألة من مسائل العلم. ومن أراد أن يتعلم فعليه في المقام الأول أن يبحث ثم بعد ذلك يعتقد، أما الجاهل وصاحب الهوى فإنه يعتقد ثم يبحث. فلماذا يبحث العلماء طالب العلم على الإنصات؟ لأن طالب العلم إذا كان متجرداً وغير متبع لهوى معين فإنه يسمع كي يصل إلى الحق بقول الله وقول رسوله ﷺ، ولقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين أن لا يرفعوا

أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ ولا أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض خوف حبوط أعمالهم.

وبناءً على هذا الكلام قال عبد الرحمن بن مهدي: إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الناس بالسكوت وقرأ: **{لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ}** ويتأول أنه يجب من الإنصات والتوقير عند قراءة حديث رسول الله مثل ما يجب له ﷺ، فكذاك يجب توقير العلماء والإنصات لهم لأنهم الذين يحيون سنته ويقومون بشريعته.

لقد كان سلوك العلماء حين يقرؤون حديث رسول الله ﷺ هو أمر الناس بالسكوت بناءً على هذه الآية لأن قول الله هذا لا ينحصر في وقت حياة النبي ﷺ ولكنه يمتد إلى ما بعد موته حيث أن العلماء قد فسروها (وحيث يُقرأ حديث رسول الله) فينبغي الأدب وحسن الإنصات والاستماع.

لماذا؟ لأن انعدام الأدب والإنصات والتركيز حين سماع حديث رسول الله ﷺ يؤدي إلى انعدام الثمرة المرجوة من هذا السماع وهي الفهم عن النبي ﷺ، وقد اعتبر العلماء رفع الصوت عند قراءة حديث رسول الله ﷺ من عدم الأدب والاحترام لرسول الله ﷺ وأيضاً من عدم العمل بهذه الآية نظراً لعدم امتثالهم للأمر الوارد فيها.

وكذا ينبغي أن يكون هذا هو الصنيع نفسه عند السماع لما يقوله العلماء لماذا؟ لأنهم هم من يحيون سنة النبي ﷺ ويحمونها، ولو لم يوجد هؤلاء العلماء الذين قاموا بتنقيح الأحاديث وبينوا الصحيح والضعيف والموضوع لضاعت السنة.

إذن فحريّ بالسامع أن يحترم هذا العالم الذي يُحافظ على سنة النبي ﷺ ويُحييها وينقحها، وإذا حفظت السنة حفظت الشريعة والعكس إذا لم تُحفظ السنة لم تُحفظ الشريعة.

وقال شريك: كان الأعمش لا يتجاوز صوته مجلسه إجلالاً للعلم.
وقال مطرف: كان مالك إذا أراد الحديث عن النبي، - صلى الله عليه وسلم -، اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جددًا، ثم تحدث، إجلالاً لحديثه - صلى الله عليه وسلم.
وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: كان يُستحب أن لا يُقرأ أحاديث النبي إلا على وضوءٍ.

فإذا ما نظرنا لأحوال السلف عند قراءة أحاديث رسول الله ﷺ فإننا نجدهم ما بين فريق يغتسل ويتوضأ ويتطيب وبين فريق لا يجلس للحديث إلا إذا توضأ فألزم نفسه بالوضوء قبل أن يُحدّث.

قال شعبة: كان قتادة لا يحدث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا وهو على طهارة.

وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث، وهو على غير وضوء تيمّم.

وقال ابن أبي الزناد: ذكر سعيد بن المسيب حديثاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مريض، فقال: أجلسوني، فإنّي أعظم أن أحدث حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا مضطجع.

كل هذا يحدث مع أن هناك إجماع من العلماء على جواز ذكر الله من غير طهارة وقد نقل هذا الإجماع الإمام النووي (ذكر الله_قراءة قرآن).

هؤلاء صدقوا في محبتهم للنبي ﷺ فالإجلال موجود حتى بعد موته بسنوات وفي ذلك دلالة على أن النبي ﷺ ظل يعيش في قلوب هؤلاء بعد وفاته فمحبتهم له كانت محبة عظيمة، هذا كان حالهم عند قراءة الأحاديث فكيف بحالهم عند العمل بما فيها.

قال الإمام أحمد بن حنبل: ما بلغني حديث إلا عملت به حتى أعطي الحجام ديناراً.

وقال ابن أبي أويس: كان مالك إذا جلس للحديث يقول: ليليني منكم ذووا الأحلام والنهي، فربما قعد الفعنبى عن يمينه، وهذا كله من إجلال النبي - صلى الله عليه وسلم - وتوقيره (لأن هذا كان فعل النبي ﷺ من حيث تقريب ذووا الأحلام والنهي منه).

فمن هو القعنبي هذا؟

قال أبو العباس أحمد بن محمد بن الصباح البزاز: لم يرو القعنبي عن شعبة غير هذا الحديث الواحد وله شرح: حدثني بعض القضاة عن بعض ولد القعنبي بالبصرة قال: كان أبي يشرب النبيذ ويصحب الأحداث فدعاهم يوماً وقد قعد على الباب ينتظرهم فمر شعبة على حماره والناس خلفه يهرعون.

فقال: من هذا؟ قيل: شعبة.

قال: وأيش شعبة؟ قالوا: محدث.

فقام إليه وعليه إزار أحمر فقال له: حدثني فقال له: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك فأشهر سكينه وقال: تحدثني أو أجرحك؟
فقال له: حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ عَنْ رَبِيعٍ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ" [أحمد ١٢١/٤ - ١٢٢، البخاري ٣٤٨٣ - ٣٤٨٤، أبو داود ٤٧٩٧، ابن ماجه ٤١٨٣].

فَرَمَى سَكِينَهُ وَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَقَامَ إِلَى جَمِيعِ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الشَّرَابِ فَهَرَّاقَهُ وَقَالَ لِأُمَّهِ: السَّاعَةَ أَصْحَابِي يَجِيئُونَ فَأَدْخِلِيهِمْ وَقَدِّمِي الطَّعَامَ إِلَيْهِمْ فَإِذَا أَكَلُوا فَخَبِّرِيهِمْ بِمَا صَنَعْتُ بِالشَّرَابِ حَتَّى يَنْصَرِفُوا.
وَمَضَى مِنْ وَقْتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَزِمَ مَالِكَ بْنِ أَنَسٍ فَأَثَرَ عَنْهُ.
ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَصْرَةِ وَقَدْ مَاتَ شُعْبَةُ فَمَا سَمِعَ مِنْهُ غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ.
(التوابين لابن قدامة)

أولاً: انظروا إلى يقظة الإمام وسرعة بديهته وفقهه في رده على شخص يخرج له في هذه الحالة ويطلب منه أن يحدثه بما عنده من علم، لقد جاءه الإلهام من عند الله فرد عليه بما يناسب المقام وكان من الممكن أن يُلقي عليه أي حديث، لقد ألهمه الله بالخير الذي أثر في الرجل وأصبح القعنبى من أئمة المالكية نتيجة ملازمته للإمام مالك.

ثانياً: الغريب هو حال هذا الشاب الذي يشرب الخمر ويصاحب أصدقاء السوء ويعيش في غفلة، كيف لشاب على هذا الحال أن يتأثر بكلمات تُقال من عالم يمر عليه في الطريق وهو لا يعرفه في الأساس بالرغم من أن شعبة هذا كان أشهر مُحدثي زمانه، فكيف للقلب أن يتحول بهذه الصورة وصاحبه على هذا الحال من الانزلاق في الذنوب والمعاصي.

قلوب هؤلاء لم تكن قد اسودت كما اسودت قلوب الكثير من المسلمين الآن فقد كان الواحد منهم يعمل المعصية ولكنها قد تكون معصية واحدة، ويمكن أن تكون في الظاهر أما القلوب فلا يعلم حالها إلا الله سبحانه، كانوا بالفعل عصاه ولكن قلوبهم لم تصل إلى درجة السواد التي أصبح عليها حال قلوب الكثير من المسلمين الآن لماذا؟

لأنه من الجائز أن لا يكون الواحد منا شارب للخمر أو أنه لا يزني في ولكن طهر قلبه ليس كطهر هؤلاء.

ففي عهد النبي ﷺ زنت الغامدية ولكنها فعلت ذلك مرة واحدة وعندما أقيم عليها الحد وماتت قام النبي ﷺ ودعا لها وتعجب الصحابة من صنيع النبي ﷺ لأنها زانية.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيَّ، أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَزَنَيْتُ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي، فَرَدَّهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: «أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بِأَسَا، تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟» فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِي الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَ فِيمَا نُرَى، فَأَتَاهُ الثَّلَاثَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا فَسَأَلَ عَنْهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بِأَسَ بِهِ، وَلَا بِعَقْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، قَالَ، فَجَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَاللَّهِ إِنِّي لِحُبْلَى، قَالَ: «إِمَّا لَأَفَاذِهِ حَتَّى تَلِدِي»، فَلَمَّا وُلِدَتْ أَنْتَهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وُلِدَتْهُ، قَالَ: «أَذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطَمِيهِ»، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَنْتَهُ بِالصَّبِيِّ

فِي يَدِهِ كِسْرَةٌ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ،
فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا،
وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيَقْبَلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَتَضَحَّ
الدَّمُّ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّهُ إِيَّاهَا،
فَقَالَ: «مَهَلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ
مَكْسٍ لَغَفِرَ لَهُ»، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ" أخرجہ مسلم(۱۶۹۵).

وهنا نرى الإصرار على التوبة، نعم هي فعلاً أخطأت بوقوعها في الزنا
وهو من الكبائر ولكنها أدركت ذلك وتابت توبة نصوحاً، وأنت النبي ﷺ
وطلبت منه أن يطهرها ولكنه ردها أكثر من ثلاث مرات، وفعل النبي ﷺ
ذلك كي يُعطيها الفرصة لتتوب ولا يُقيم عليها الحد، لقد مرت كل هذه
المدة ولم تتراجع عن إرادتها في تطهير نفسها من الذنب قبل أن تلقى
ربها.

أما حال البعض منّا اليوم أنه يمكن أن يندم على الوقوع في الذنب ولكن
لن تتعدى فترة ندمه ساعات وقد تكون أيام ولكنه سرعان ما ينساه وقد
يقع فيما هو أعظم منه وقد لا يستشعر أصلاً أنه فعل شيء، ولكن الغامدية
ظلت فترة الحمل وأعقبها فترة الرضاعة (ما يقرب من ثلاث سنوات)
وبالرغم من ذلك استمر ألم الندم يعتصرها فلم يتغير قلبها ولم يتبدل
حزنها ولم يضعف إصرارها على التوبة إلى أن أقيم عليها الحد.

الإشكالية بالنسبة لحال المسلمين الآن هي:

أولاً: الجميع بشر وبالتالي فالكل يُخطئ فليس هناك منّا مَنْ هو معصوم من الوقوع في الخطأ.

فقد لا نقع في ارتكاب هذه الذنوب الكبيرة (الزنا_شرب الخمر_غير ذلك) لكن يمكن أن يكون في القلوب مشاكل وأمراض أكبر من هذه الذنوب بكثير فتحول بين المسلم وبين التوبة.

عندما تابت الغامدية هذه التوبة وأصرت على أن تتطهر منها بإقامة الحد عليها بعد كل هذه المدة علم النبي ﷺ أن قلب هذه المرأة سليم ولم تكن هذه الشهوة إلا مجرد أمر عارض وقد كان زمنهم زمن جاهلية ومَنْ يفعل فيه هذا الأمر يكون جرّمه شديد فهي فضيحة كبرى لنفسه ولأهله ولكنها أصرت على إقامة الحد عليها حتى تتطهر.

وعن ابن جريج قال: لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

فقد كان عطاء رحمه الله شديد في طبعه وذلك أمر عادي فقد كان عمر رضي الله عنه شديد وكان أبو بكر ليناً وهما أفضل اثنين في أمة الإسلام بعد النبي ﷺ.

يقول ابن جريج: أنه بالرغم من حدة الطبع التي اشتهر بها عطاء إلا أنه بالرفق واللين وحسن الخلق حصلّ منه علماً كثيراً لم يستخرجه منه أحد غيره.

وقال بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع احرص منك على أن تقول.

فينبغي على من يجلس في مجالس العلماء أن يحرص على السماع لا على الكلام حتى ينال الفائدة من هذا المجلس.



بَابُ: مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ - تعالى -.

١٢٢- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيِّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ؟ فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ حَدَّثَنَا أَبِي بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فُسئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمٌّ، فَانْطَلِقْ وَانْطَلِقْ بِفَتَاهُ يُوْشَعَ بْنِ نُونٍ،

وَحَمَلًا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاةَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: (أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا

إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أُنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ) قَالَ مُوسَى: (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، إِذَا رَجُلٌ مُسَجَّى بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الخَضِرُّ: وَأَنْى بَارِضِكَ السَّلَامُ؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَى، فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ أَتْبَعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمْنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَ لَا أَعْلَمُهُ، قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفَ الخَضِرُّ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقَرْتَيْنِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُّ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ، فَعَمَدَ الخَضِرُّ إِلَى لَوْحٍ مِنَ ألْوَاحِ السَّفِينَةِ، فَنَزَعَهُ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدَتْ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَحَرَقَتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا - فَكَانَتْ الأُولَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا -، فَانْطَلَقَا، فَإِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُّ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ فَأَقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى: أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ - قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَهَذَا أَوْكَدُ - فَانْطَلَقَا، حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ، قَالَ الخَضِرُّ: بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ " قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَرْحَمُ

اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا» أخرجه البخاري (١٢٢).

نوف البكالي: هو تابعي من أهل دمشق فاضل عالم لا سيما بالإسرائيليات وكان ابن امرأة كعب الأحبار وقيل غير ذلك.

- **كذب عدو الله:** أي أخبر بما هو خلاف الواقع.
- ومراد ابن عباس رضي الله عنهما الزجر والتحذير لا المعنى الحقيقي لهذه العبارة.
- **فعتب:** لم يرض منه بذلك وأصل العتب المؤاخذة.
- **بمجمع البحرين:** ملتقى البحرين وفي تسمية البحرين أقوال،
- **مكتل:** وعاء يسع خمسة عشر صاعاً، - **فانسل:** خرج برفق وخفة،
- **سرباً:** مسلكاً يسلك فيه، - **نصباً:** تعباً، - **مسا:** أثراً وفي رواية شيئاً،
- **مسجى:** مغطى كله كتغطية وجه الميت ورجليه وجميعه،
- **وأنى بأرضك السلام:** كيف تسلم وأنت في أرض لا يعرف فيها السلام، - **نول:** أجر، - **فعمد:** قصد، - **الأولى:** المسألة الأولى،
- **زكية:** طاهرة لم تذنّب، - **وهذا أوكد:** أي قوله، - **ألم أقل لك:** لزيادة لك فهذا أوكد في العتاب، - **استطعما:** طلباً طعاماً، - **ينقض:** يكاد يسقط، - **قال الخضر بيده:** أشار بها، - **من أمرهما:** ممن الأعاجيب والغرائب، - **قصاصاً:** تعني التتبع.

فمن هو سعيد بن جبير؟

الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد أبو محمد ويقال أبو عبد الله الأسدي الوالبي الكوفي، سعيد بن جبير الأسدي (٤٦-٩٥هـ) تابعي كان

تقياً وعالمًا بالدين درس العلم عن عبد الله بن عباس حبر الأمة وعن عبد الله بن عمر وعن السيدة عائشة أم المؤمنين في المدينة المنورة، سكن الكوفة ونشر العلم فيها وكان من علماء التابعين فأصبح إمامًا ومعلمًا لأهلها، وقتله الحجاج بن يوسف الثقفي بسبب خروجه مع عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته على بني أمية.

ومن هو أبي بن كعب؟

أبي بن كعب ابن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار سيد القراء أبو منذر الأنصاري النجاري المدني المقرئ البصري ويكنى أيضا أبا الطفيل شهد العقبة وبدرا، وجمع القرآن في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وعرض على النبي - عليه السلام - وحفظ عنه علما مبارك، وكان رأسا في العلم والعمل - رضي الله عنه.

(سيد القراء):

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ" قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «فَذَاكَ رَجُلٌ لَا أَزَالُ أُحِبُّهُ، مُنْذُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدَأَ بِهِ» مسند أحمد (٦٧٨٦)، (سنن الترمذي (٣٨١٠)).

ومن فضائل أبي بن كعب:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي:

"إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ **{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}**

[البينة: ١] قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَبَكَى " أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٣٨٠٩)، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٧٩٩).

هؤلاء هم الصحابة الأخيار الأطهار الكرام الذين نزل فيهم القرآن، فأحدهم يذكر بالاسم ليقرأ عليه القرآن والأخرى يقرئها جبريل السلام من ربها وعائشة يُزوجها ربها، وزينب بنت جحش تُزوج من فوق سبع سماوات، وسعد بن معاذ يهتز له عرش الرحمن عند موته ويُشيع جنازته سبعون ألف ملك، أبو بكر الصديق ينزل فيه قرآن، عثمان بن عفان يُبلغه النبي ﷺ أنه سيموت شهيدًا مظلومًا، علي بن أبي طالب يتزوج بنت النبي ﷺ ويُنجب سيدا شباب أهل الجنة، وغيرهم الكثير، هؤلاء هم أفضل البشر بعد الأنبياء فكيف لباغي طاغي جاهل حقود حسود لا يعلم أي شيء أن يطعن في هؤلاء القوم الذين اصطفاهم الله واجتباهم واختارهم ليكونوا أصحاب خير خلقه.

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا الْمُنْدَرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْدَرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: **{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}** **[البقرة: ٢٥٥]**. قَالَ: فَضْرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْدَرِ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٨١٠).

- **ليهنك العلم:** أي ليكن العلم هنيئًا لك.

أجاب في المرة الأولى بإرجاع العلم إلى الله ورسوله وذلك كان منه تأدبًا، فلما أعاد النبي ﷺ السؤال مرة أخرى علم أن النبي ﷺ أراد أن

يسمع منه الرد ليطمئن قلبه على علم أصحابه ثم أيده النبي ﷺ في رده هذا ودعا له.

لقد أورد الإمام البخاري هذا الحديث هنا لإثبات أن موسى عليه السلام الذي ذهب إلى الخضر هو موسى نبي الله الذي أرسله لبني إسرائيل _ حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَتَأَمَّآ، فَانْسَلَّ الْحُوتُ: فلما وصلا إلى الصخرة ناما وهنا خرج الحوت الناضج والذي أعده الغلام ليأكلانه وأتجه إلى البحر وتلك آية من آيات الله، وقد تعجب موسى وفتاه مما حدث.

وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ: وقد ظل موسى عليه السلام يمشي هو وفتاه مسافة كبيرة جدًا ولم يشعر بأبي تعب إلى أن وصلا إلى المكان الذي سيفقدان فيه الحوت وعلموا أن تلك هي العلامة على المكان المقصود.

فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ هذه الكلمات تشير إلى أن الخضر كان غاضبًا وأن أرضه التي كان يعيش فيها بها معاصي. يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمْنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكُهُ لَا أَعْلَمُهُ.

ولنا مع هذه الكلمات وقفة لأنها تدل على أن الخضر ليس أعلم من موسى على وجه الإطلاق، لأنه كيف لموسى أن يكون من أولي العزم من الرسل وهو نبي من أنبياء الله وله ما له من المكانة والمنزلة ثم يكون هناك نبي آخر ليس له نفس المكانة ولا المناقب ويكون أعلى منه علمًا (والخضر نبي أيضًا هذا قول أهل السنة والجماعة، على عكس ما يدعي الصوفية وليس من الممكن أن يفعل كل هذه الأفعال ثم يقول وما فعلته عن أمري ولا يكون الأمر له هو الله.

وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ عَمَّكَ لَا أَعْلَمُهُ: لقد كان علم الخضر علماً جزئياً وليس أعلى من موسى عليه السلام مطلقاً في العلم بدليل قوله هذا.

هذه القصة أوضحت أن الإنسان قد يكون بالرغم مما عنده من العلم والفضل والمناقب إلا أنه ينقصه جزئية من العلم هو غير مُتقن لها ولا إشكال في ذلك، ومن يدعي أن لديه العلم الكامل هو مجنون فحتى نبينا ﷺ لم يؤت العلم الكامل قال تعالى: **{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) }** [الإسراء] فالكمال في العلم لله وحده.

كما أنها تحمل آداب كثيرة ينبغي أن يتحلى بها طالب العلم منها:
أن يتأدب الطالب في طلب العلم ولا يستتكف ولا يستكبر ولا يستحي من أن يطلب ممن هو دونه في الفضل والعلم.
فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَىٰ مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةٍ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ.

أراد الخضر عليه السلام أن يُعلم موسى عليه السلام أن علمهما بالنسبة لعلم الله لا يساوي شيء ولا ينقص منه شيء كما لا ينقص نقرة أو نقرتين من عصفور في البحر من ماء البحر.

قَالَ: لَا تُوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا: فالأولى كانت نسياناً فلا تُعسر ولا تُشدد علي الأمر.

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَهَذَا أَوْكَدُ: أَيُّ أَنْ النُّكْرَانَ هُنَا أَوْكَدُ مِنَ النُّكْرَانِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى لِأَنَّ الْأَمْرَ هُنَا مُتَعَلِّقٌ بِإِزْهَاقِ رُوحِ طِفْلِ وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَقَتْلِ الْكَافِرِ كَانَ جَائِزًا فِي شَرِيعَةِ هَؤُلَاءِ أَمَّا فِي شَرِيعَتِنَا فَلَا لِأَنَّ الْكَافِرَ فِي شَرْعِنَا لَا يُقْتَلُ إِلَّا فِي سَاحَةِ الْقِتَالِ.

قال الإمام النووي: قوله صلى الله عليه وسلم: (فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه أي كان حقه أن يقول: الله أعلم).

فلماذا عتب الله عز وجل على موسى عليه السلام؟ لأن الله سبحانه يُربي أنبياءه وأصفيائه فكان ينبغي عليه أن يقول الله أعلم.

يقول النووي: فإن مخلوقات الله تعالى لا يعلمها إلا هو.
قال الله تعالى: { وما يعلم جنود ربك إلا هو }.

١- واستدل العلماء بسؤال موسى السبيل إلى لقاء الخضر صلى الله عليه وسلم على استحباب الرحلة في طلب العلم ، واستحباب الاستكثار منه، وأنه يستحب للعالم وإن كان من العلم بمحل عظيم أن يأخذه ممن هو أعلم منه ، ويسعى إليه في تحصيله.
فإذا كان هناك شخص عُرف عنه أن لديه علم رصين صحيح نافع صافي وزكاه العلماء فعلينا أن نجاهد ونجتهد حتى نصل إلى هذا العالم ولو قطعنا مسافات من أجل ذلك لأن هذا الشخص لا يوجد منه الكثير، ومهما كبر الإنسان في السن فعليه أن يستمر في طلب العلم.

_حدثنا أبو عمرو محمد بن أحمد الدقاق، قال: حدثنا صالح بن

أحمد بن حنبل، قال: رأى رجل مع أبي محبرة، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين. فقال: مع المحبرة إلى المقبرة. (مناقب الإمام أحمد).

٢- وفيه فضيلة طلب العلم وفي تزوده الحوت وغيره جواز التزود في السفر.

٣- وفي هذا الحديث الأدب مع العالم، وحرمة المشايخ، وترك الاعتراض عليهم (لأن موسى عليه السلام عندما اعترض فقد علم الخضر، ولكن اعترض موسى كان لسبب وهو غيرته على الدين فقد رأى أمور منكرة لم يستطع أن يراها ولا يعترض عليها).

كما حث الحديث أيضاً على التواضع مع من تتعلم منه
فقد قال رسول الله ﷺ:

عَنْ عَابِسِ بْنِ رَبِيعَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوَاضَعُوا ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ». (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)

لأن العالم إذا رأى من الطالب الذي يجلس أمامه كبير أو عجب ورؤية نفس فإنه لا يحب أن يعطيه من علمه ولا يود أن يتعامل معه.

- وفيه أدب المتعلم مع المعلم: (على أن تعلمني).
- وفيه أيضاً فائدة لطيفة، فالمتعلم له أن يبين حاله التي سيكون عليها مع معلمه، لينال رضاه عليه، وإقباله لتعليمه. ورغم أن المتعلم هنا أرفع قدراً

بحكم النبوة والرسالة (باعتبار نبوة الخضر عليه السلام)، إلا أنه يقدم
عرضاً للمعلم كي تطيب نفسه بصحبته بشيئين :
أ) **ستجدي إن شاء الله صابراً: أي صبر على التعلم مع تعليقه الصبر
بالمشيئة.**

ب) **لا أعصي لك أمراً: وفيه تمام الامتثال والطاعة.**

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

